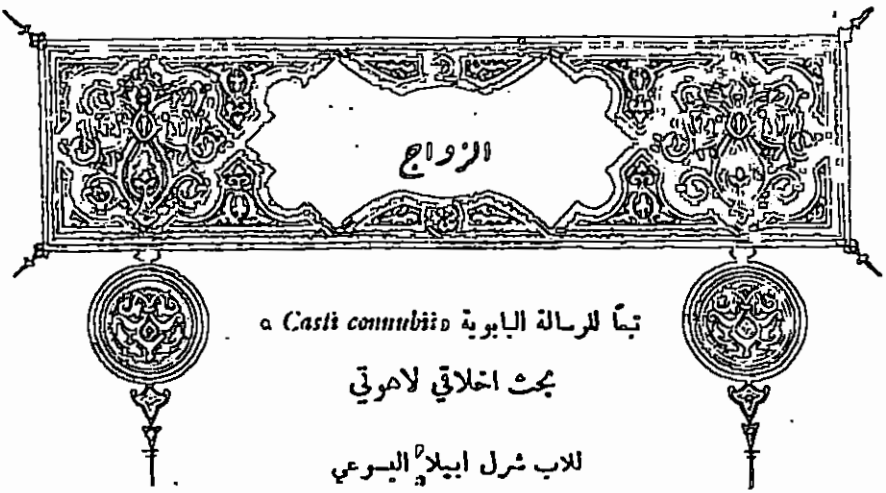

تبعاً للرسالة البابوية « Casti connubii »

بحث اخلاقي لاهوتي

للاب شرل ابيلا البسوعي

منشأ الزواج من الله وضعاً وطبعاً

٤

٨ ملاحظتان في مدّعيات التطوّريين

بقي لنا ملاحظتان في شأن مبدأ التطوريّين والوقائع التي يستشهدون بها لمذهبهم فنقول :

١ – أمّا أساس مذهبهم فهو ، فضلاً عن انكارهم لوضعية الزواج الالهية وغائيته الطبيعية ، الافتراض التالي : يزعمون انّ المتوحّشين من الناس وهم احطّهم تمدناً ، انما يُمثلون لنا ، باخلاقهم واصطلاحاتهم ، الانسان الاقدم الاول . وهو سليل الحيوان اي القرد او احد اسلافه . وعليه فان تاريخ البشرية لمنحصر في وصف تطوّراتها والمراحل التي اجتازتها منذ الآدميّ الاول الى عصر التمدّن الحاضر . على ان الأخلاق والاصطلاحات تسير لدى الشعوب سير الصناعة . هكذا كانت في القدم حال متوحّشي اوربة ، وهكذا ايضاً هي حال متوحّشي يومنا هذا في افريقية واوقيانية . ومن ثمّ فان شئنا ان نستدلّ على ما كانت عليه علاقات المرء بالمرأة يومَ كان البشر يستعملون الحجارة المنحوتة المصقولة آنيةً وسلاحاً ، فما علينا الّا ان ننظر الى العلاقات عينها ، على ما هي جارية في ايّامنا لدى الشعوب الهمجية .

تلك هي نظريّة التطوّريين الاساسيّة ، على ما شرحها احد زعمائهم ، وهو

جون لُبُكْ ، في مؤلَّفه *The Origin of Civilisation*[1].

فاقول : انّ الافتراض المذكور ، مع ما قد ينمّ عنه من حدّة الذهن وتوقده لدى مختلقه ، لا يعدو افتراضاً محضاً ، ليس فقط لا تدعمه الوقائع بل تنقضه صريحاً. فانك لتجد في قلب افريقية قبائل هي ، من الوجهة الصناعية ، احطّ جدّاً من الاوربيين ، وبالرغم من ذلك تراها ، من حيث اصطلاحاتها وعوائدها وآدابها العائلية ، اسمى مترعاً وادقّ قاعدة من بعض الشعوب العصرية المريقة في الحضارة . أضف الى ذلك انّ دروين نفسه ، مع انحيازه الى مزاعم لُبُكْ ، قد ابدى من التحفّظ ما ينفيها ، إلّم يكن جميعاً فبالاقلّ بعضاً . يقول دروين ان الانسانَ سليلٌ لجدّ تربطه القرابة بالقرد. الّا انه درس طباع القرود فوجد منها فئاتٍ كثيرة ليس للذكر منها الّا انثى واحدة ، وفئاتٍ غيرها بالخلاف ، ممّا ينتج عنه في رأيه انّ مذهب القائلين بوجود القران الخليط في الحالة الطبيعية (اي في ايام الانسان الاوّليّ) بعيدٌ للغاية عن الرجوح[2].

ب — وقد نقّب العلماء كثيراً في اماكن مختلفة عديدة عن احوال معاصرينا من المتوحّشين وعوائدهم وطبائعهم ، وبحثوا عنها بحثاً تزيياً مدققاً . وممّا حصّلوه ، وهو كثيرٌ ، يُستفاد صريحاً ان القران الخليط لدى الشعوب المذكورة ، إن كان واقعاً فعلاً ، فانما هو لديها امر شاذّ ، لا قاعدة مطردة ، بل هو انحطاط وفساد وخروج عن القياس الاقدم الاوّلي ليس الّا.

هذا ما لم تبقِ مجالاً للريب فيه الشواهد العديدة من كلّ نوع ، التي نشرها العلّامة وستمارك بكتابه «في اصل الزيجة في النوع البشري»[3] وسيادة المطران لروا بكتابه «في ديانة الاوّليين.» فان هذا الحبر العلّامة قد اقامَ خمسة وعشرين عاماً في افريقية ، بينَ جماعات البانتو (Les Bantoues) وهي لا شكّ من اول الاوليّين ، وقد تفقّد ، بنفسه وبواسطة مرؤوسيه من المرسلين ، البلاد طولاً وعرضاً ، من الاوقيانوس الاتلنتيكي الى الاوقيانوس

---

١) راجع Fonsegrive, *Mariage et Union libre*, p. 8.

٢) راجع المؤلّف ذاته ، ص ٢٠

٣) Westmarck, *Origine du Mariage dans l'espèce humaine*. – Paris. 1895.

الپاسيفيكي . وكانت نتيجة دروسه الطويلة وتحقيقاته الدقيقة كتابه المذكور.

وممّا جاء فيه « انّ الحالة البهيمية المذكورة (اي الحالة الناشئة عن الصلات الجنسية المختلطة المتنقلة) قد لا يستحيل وجودها سابقاً لدى بعض قلول من البشر ، ممن خصّهم الشقاء بهذا الضرب من التعاسة . وعلى كل حالٍ فممّا تقتضيه الحكمة ألّا يُنزّل قولٌ افتراضيٌّ محضٌ كهذا منزلة الحقيقة الراهنة ، ما لم يُدّعم عليه من الوقائع الثابتة المبيّنة ادلة واضحة دامغة . والاكيد هو اننا لا نرى اليوم بتاتاً في اي ناحية من افريقية اثراً للاختلاط المذكور ، اللهمّ اذا ما استثنينا البؤر الواسعة الممتدّة في المنطقتين الشرقية والشمالية . . . حيث نرى ذلك بين قطعان الوعول . واماً الآدميّون فبقدر ما يتخطّى الباحث منحدراً بالتأمل نحو الذين وُسموا منهم بسموم دلائل الانسان الاولي ، وكذا هي حالة الزُنيجيّين (les Négrilles) والصان (les Sâns) ، بقدر ذلك يتّضح له بنوع اجلى ان المبدأ العائلي لديهم هو القاعدة الاساسية الواجبة بدون ما مراجعة للمجتمع الانساني من اوّل نشأته[1] .

٩ نتيجتان عمليتان خطيرتان

وعلى ما بسطنا الى الآن من الحقائق الراهنة تترتّب نتائج عملية ادبية شتى ، نقتصر على اثنتين منها ، لما لهما من الخطورة :

١ — فالاولى مبنية على كون الزواج ، كما سبق لنا بيانه ، عقداً يُبرمه الرجل والمرأة ، ليس عن رغم ولكن عن تحرّ واختيار . وهو في الوقت نفسه من وضع الله وحياً-وطبعاً ، واصولاً وسنّناً . ومن ثمّ ما ورد في الرسالة الحبرية :

« فبالزواج اذاً تتحد الارواح وتأتلف قبل اتحاد الاجساد عينها . وترتبط ارتباطاً اوثق لا بتأثر العواطف او ميل القلوب بل بقرار الارادة الاختياري الثابت . وعن اتحاد الارواح هذا ينتج ، بناء على ما قرّره الله ، وثاق مقدّس لا يمكن مسّه .

---

(١) Mgr. A. Le Roy, *La Religion des Primitifs*, Pari , Beauchesne, 1909, p. 95 — راجع ايضاً Castillon في مقاله المذكور آنفاً ع ٩١ — ٩٤

« فطبيعة هذا العقد الخاصة به دون سواه تجعله يبعد بعد السماء عن الارض عن اجتماع البهائم الذي تدفعها اليه غريزيتها العمياء ، حيث لا عقل ولا ارادة حرّة ، وايضاً عن تلك الزيجات المتقلقلة الدارية عن كل رباط حقيقي وصالح ، والخالية من كل حقّ بالعيشة الميلّة.

« فما تقدّم يتحصّل بنوع اكيد ان للسلطة الشرعية حقاً بان تحظر الزيجات غير اللائقة ، التي تخالف سنة العقل والطبيعة وتحرمها وتعاقب من يُقدم عليها ، بل توجب عليها وظيفتها ان تفعل ذلك[1].»

تلك هي النتيجة الاولى وقد لخّصها الله بالسادسة والتاسعة من وصاياه العشر . قال عزّ وجلّ : « لا تزنِ . ولا تشتهِ امرأة قريبك.»

ب — ثمّ ان ما ذكرناه من كلام الرب في سفر التكوين ، حيث بارك ابوينا الاولين وامرهما ان « اثمروا واكثروا » ، وما بسطناه من الادلة على حقيقة تأصّل الزواج في الطبيعة ، ينجم عنه جليًّا ان ايلاد البنين هو اهمّ غايات الزيجة بل اولها منزلة . وعلى هذه الحقيقة يترتب ما جاء ايضاً في الرسالة الحبرية ، واليك نصّه :

« ما من سبب البتّة ، مهما كان خطيرًا ، يستطيع ان يُصيّر ما هو في ذاته ضدّ الطبيعة مطابقاً لها وصالحاً . ولما كان فعل الزواج من طبعه معدًّا لولادة البنين ، فالذين يتعمدون في مزاولتهم اياه تجريده من هذه القوّة الطبيعية والفاعلية ، يفعلون ما يضادّ الطبيعة ويأتون عملًا قبيحاً ومن ذاته سيّئاً.

« فلا عجب ، والحالة هذه ، اذا كانت الاسفار المقدّسة تشهد ان العزّة الالهية تُبغض اشدّ البغض هذا الاثم الفظيع وانها عاقبته بالموت ، على ما يذكر القديس اغوسطينوس اذ يقول : « حرام وقباحة ان يباشر المرء امرأةً ، حتى لو كانت زوجة شرعية ، حيث يُمنع الحبل بالاولاد . ذلك ما كان يفعله اونان ابن يهوذا ومن اجله اهلكه الربّ.»[2]

---

١) الرسالة *Casti connubii* : ص ٤

٢) القديس اغوسطينوس في زواج الزناة ، كتاب ٢ عدد ١٢ — قابل ذلك مع الفصل ٣٨ من سفر التكوين عدد ٨ — ١٠ وديوان التوبة المقدّس ٣ نيسان و ٣ حزيران ١٩١٦ .

« ولما كان بعض الناس قد مالوا صريحاً عن التعليم المسيحي الذي لم يبرح من البدء الى الآن مؤيداً بالتقليد ، بدون انقطاع البتة ، فقرّ رأيهم ، في الآونة الاخيرة ، بشأن كيفية التصرّف هذه ، على وجوب المناداة جهراً بتعليم غير هذا ، فالكنيسة الكاثوليكية ، التي اليها وكل الله تعالى نفسه ان تعلّم الآداب السليمة الصالحة وتدافع عنها ، بينما هي قائمة بين انقاض خراب الآداب هذا ، وغيةً منها في صيانة عفّة العقد الزواجي من ذلك الوصم المعيب ، ودلالة على المهمّة التي أنابها الله للقيام بها ، ترفع صوتها عالياً بفمنا ، وتعلن مجدّداً ان كل استعمال لفعل الزواج يُجرَّد من قوّته الطبيعية لايجاد الحياة ، هو مخالفة لشريعة الله وسنة الطبيعة ، وأن الذين يقترفون مثل هذا ، يتلطّخون بوصمة الاثم الثقيل . »[1]

واما قول الحبر الروماني المذكور : « لما كان بعض الناس قد مالوا صريحاً عن التعليم المسيحي ... » فهو تلميح ظاهر الى ما نادى به من التعليم الاساقفة الانكليكانيون في الاجتماع الذي عقدوه في لَنبث في شهر آب سنة ١٩٣٠ . وقد وافقت اكثريتهم ، اي ١٩٣ اسقفاً ضدّ ٦٧ صوّتوا بالخلاف و ٤٠ امتنعوا عن التصويت ، على حكم هو نقيض ما كان الى الآن ارباب كلّ المذاهب المسيحية قد اجمعوا عليه او كادوا ، في الموضوع الذي نحن في صدده . وقد كان لهذا الحكم صدى أسفٍ ليس خارجاً عن انكلترة فحسب ، بل في داخلها حتى لدى بعض الجماعات الانكليكانية نفسها[2] .

ولا عجب فان الوعد « لبواب الجحيم (اي الضلال) لن تقوى عليها » انما قد خصّ به المسيح الكنيسة المرتكزة على الصخرة البطرسية .

ولم يجد الحبر الاعظم بدّاً من ان يُوجّه الى الكهنة الانذار الآتي : « وعليه فاننا بما لنا من السلطة العظمى والعناية بخلاص الانفس كلها ، نُنذر الكهنة الذين يُعنون باستماع الاعترافات ، وسواهم ممّن يهتمّون بخدمة الانفس ان لا يدعوا المؤمنين المسلّمين اليهم يضلّون في شأن شريعة الله هذه الخطيرة

١) الرسالة الحبرية المذكورة ص ٢١ . ٢) راجع مقال الاب بيردو اليسوعي في مجلة *Etudes*, 1930, tome 205, pp.521-529 وطالب المشرق (٢٩ [١٩٣١] ١٤٠ .

للغاية ، وبنوع اشدّ جدًّا ، ان يصونوا ذواتهم من تلك المزاعم الكاذبة وان لا يوافقوا عليها باي وجه كان.

« وان حدث ، لا سمح الله ، ان احد الكهنة المبرّقين او رعاة الانفس ، انسقط هو نفسه المؤمنين المسلّمين اليه في هذه الاضاليل ، او في الاقل تتهم فيها إمّا بموافقته عليها وإمّا بسكوته عنها خداعاً ، فليعلمنّ انه سيقدّم للاله الديّان الاعظم ، عن خيانته للوظيفة ، حساباً صارماً ، وليعتبرنّ موجّهاً اليه قول المسيح هذا[1] : « انهم عميان وقادة عميان . واذا كان اعمى يقود اعمى فكلاهما يسقطان في حفرة . »[2]

ولم يكن الاب الاقدس ليجهل ما يعاني بعض ارباب العائلات من العسر في المعيشة والمصاعب التي تعترضهم في القيام بسدّ حاجات ذويهم ، ولا سيما في ايامنا هذه . على ان الواسطة ، اذا ما كانت رديئة من طبعها ، لا تبرّرها الغاية ، مهما كانت صالحة شريفة . ولا سيما ان لمعالجة الحالة المذكورة ، غير الواسطة التي يُقبّحها سيّدنا البابا ومثله كلّ ذي عقل سليم مصيب ، ادوية عديدة صالحة ناجعة قد ورد وصفها في الرسالة الجبرية ، فنحيل اليها القارئ اللبيب[3].

ومما لا يسعنا ، في ختام هذه العجالة ، الّا ان نلفت النظر اليه ، علاج لآفات الزواج جزيل الفائدة ، إلّم يأتِ ذكره صريحاً في الرقيم البابوي ، فيكاد يكون مقدّرًا تحت كل اسطره ، الا وهو الاعتقاد الثابت ، المبنيّ على الايمان والاختبار والعقل ، ان الدنيا هذه انما هي وادي الدموع ، وان المسيح قد وجّه الكلام الى الجميع بدون استثناء اذ قال في الانجيل : « من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني[4]. » فعلامَ تخرج حالة المتزوّجين عن الحكم هذا ؟ (تمّ المقال الاوّل)

---

١) متى ١٥ : ١٤

٢) الرسالة البابوية ذاتها ، ص ٢٢ — راجع مجمع الفتيش : ٢٢ ت ٢ سنة ١٩٢٢

٣) راجع الرسالة *Casti connubii* ص ٢٨ — ٤٨ ، ولا سيما ص ٤٨ — ٥٢

٤) متى ١٦ : ٢٤